

## البحث الثالث

### أصل العقيدة وتطورها

تدور مبادئ العقيدة حول المعبود ، فهو مركزها... بل هو مصدرها ؛ إليه يتوجه العابد، ومنه يتلقى الأوامر والنواهي ، ومن أجل رضاه ينفذ كل ما يصدر ، وطمعاً في ثوابه وخوفاً من عقابه يمارس طقوس العقيدة ، حسب ما يتصور أنها أوامر منه .

ومن هنا كان على الباحثين في مجال العقيدة ، والمشتغلين بالدراسات الدينية أن يبدؤوا بالبحث عن هوية المعبود .... ماهو ؟ وكيف هو ؟ .... طبيعته ، ومجال قدرته ، وآفاق تأثيره . ولما كانت طبيعة المجتمعات مختلفة : في تراثها الفكري ، وطبيعة تقاليدها ، ونظرتها للوجود، وفهمها للحياة .... تبين تصورهما للمعبود ، فاختلقت نظرتها إلى كنهه ، وتكوينه ، ومدى قدرته في هذا الكون ، سواء كان بالنسبة للطبيعة وظواهرها، أول للإنسان وعلاقته بمن - وما - يحيط به : من جادات ، وكائنات حية تُشكّل الوجود حوله ، وتتفاعل معه في مجال نشاطه الاجتماعي ، والاقتصادي ، والسياسي ، بما يتضمنه من مبادئ وأخلاق .

تواجه كلمة " الألوهية " الانسان البدائي في كل أنشطة الحياة ، غير أنها لا تحتاج في مفهومها إلى الاقتران بشخص ، كما هو الحال في كلمة " مانا " ، فقد جاء في المعجم العلمي الذي ألفه " ف . ر . ليمان F. R. Lehmann " أن كلمة " مانا " يقترب تصورهما في فكر البدائي من كلمة " تابو " ، ولم يكن السبب في هذا وجودها في منطقة المحيط الهادي - كما هو الحال في كلمة " التابو " - ، بل لأنه يتردد ظهورها في كل الأديان بأشكال وصيغ مختلفة ، فتصورها عند البدائي يقترن بشخص ، ومن هنا لا يمكن للمرء أن يوضحها بدون كائن حيّ تضاف إليه ، فهي مثل الروح لاتنفك في مفهوم البدائي عن جسم تحل فيه .

كما لا ينبغي تفسيرها على أنها عناصر سحرية مركبة ، ولا يجوز فهمها على أنها فوق الطبيعة، أو أنها ليست نهائية. وزيادة في وضوح مفهومها يمكن أن نقارنها بالتنفس الذي يخرج من الإنسان ، أو بالخيلات المقدسة التي يتصورها الإنسان في محيط معيشته. وقد ظهر هذا المعنى بأسماء مختلفة في الأديان، مثل : " براهما " في الديانة الهندية، و " التابو " في جزر المحيط الهندي، و " كامى Kami " عند اليابانيين ، و " مانيتو Manitu "

عند الهنود الأحمر، و " أوراندا Orenda " عند" ابروكيزين Irokese " ، و " فاكوندا Wakunda - عند الهنود الأحمر .

يعتقد البدائي بأن " المانا " وما شابهها، لديها قوة جبارة ، تحميه وتساعدته ضد كل الأخطار التي تصادفه في نشاطه المعيشي ، فالفلاح يرى أن هذا المقدس - "مانا " وما شابهه في الأديان الأخرى - قادر على تزويده بالقوة التي تمكنه من التعامل بشكل صحيح مع الأرض التي يزرعها ، وتعينه على التصدي بعزم وقوة لكل ما يضر حقله ، أو يتلف زراعته ، سواء كان ذلك بواسطة الهواء أو الشمس أو الأرض ، بحيث تسلم هذه المزروعات إلى وقت الحصاد .

وبالنسبة للصيد تمده " المانا " بما يمكنه من استخدام آلات الصيد بشكل جيد ، وترشده إلى أماكن وجود السمك ، وتحول دون هروب الصيد من شباكه ....

كما تمد الطبيب بوسائل شفاء مرضاه ، وتمنح الأمير قوة تمكنه من السيطرة على رجاله ، وتعينه على الظفر بأعدائه ..... وهكذا يعتقد البدائي أن تلك القوة الخفية تساعد في أعماله ، وتحفظه من الشرور المحيطة به ، وتوازره في مواجهة أعدائه ... ولهذا فهو يضع نفسه رهن إشارتها ، ويؤدى الطقوس التي تجعلها راضية عنه ، حتى يطمئن إلى حمايتها ، ويأمن شرها .

تشيع هذه الفكرة بوجه عام لدى كل الشعوب رغم اختلاف تصورها لهذه القوة ، وتعدد أسمائها باختلاف الشعوب والأعراق ، وتباعد الأماكن الجغرافية بعضها عن بعض، فهي تتفق في :

- الإيمان بقوة غيبية .
- حلول هذه القوة في شخص ، أو حيوان ، أو نبات ، وأحياناً في جهاد ، أى أنها تبدو في ظواهر مرئية .
- قدرة هذه القوة اللامحدودة في تصريف الأحداث المحيطة - والمتعلقة - بالإنسان ، وكذلك تبديلها .
- محاولة الإنسان التزلف إلى هذه القوة ، بممارسة الطقوس التي ترضى عنها حسب مايعتقد البدائي ليأمن شرها ، ويُنال خيرها .

غير أن تصور هذه القوة اختلف من بيئة لأخرى ، ومن شعب لآخر ، بل داخل القبيلة الواحدة تعددت صور هذه القوة . وبحكم اتصال هذه الشعوب ببعضها ، تداخلت الصور ، فتعددت الآلهة ، وأصبح

لكل إله مهمة خاصة يقوم بها ، فهناك إله للمطر ، وآخر للريح والرعد والبرق ، وثالث للخصوبة .... حتى كان هناك إله للحب .

اعتقد البدائي أن هناك وحدة تجمع هذه الآلهة ، فاعتقد أن لها مجلساً تتشاور فيه في شئون الخلق ، وبالتالي تقرر مايجب عمله في مظاهر الطبيعة وظواهرها ، وما ينبغي تنفيذه بالنسبة للأفراد والشعوب . ويمكن أن يعبر عن هذا التصور البدائي بأن هناك وحدة بين الآلهة ، تبدو في خلفية فكر الإنسان الأول ، فعبّر عنها بصيغ مختلفة ، وظواهر مرئية متعددة ، يجمعها إله واحد ، أطلق عليه اسم : " الإله الأعلى " على أن هذا الكائن الأعلى ، بالرغم من الإيمان به قليلاً ، لا يُعبَد بالضرورة في الحياة التقليدية للعائلة أو القرية ، فهو غير شخصي ، وبعيد . وفي أحسن الأحوال هو الملجأ الأخير للعابد ، فهو يعتقد أنه منبع القوى الحيوية التي يستمد منها كل الآلهة قوتهم ، وهو في الفكر البدائي فوق التشخيص ، وإن كان يُنسَب إليه بعض الصفات الشخصية في أضيق الحدود ، وكلما قلت الصفات الشخصية ، التي تُنسَب إليه ، كلما ازداد رفعة ومكانة عند العابد .

ومن الممكن أن تتضاءل التعددية الإلهية ، عندما يظهر الشكل الواحد للمعبود تحت مسميات متعددة ، وغالباً ما يكون هذا في أشكال ذات صلة قريبة من بعضهم في التصور والتأثير في الأحداث . وأحياناً تظهر الوحدة في الطقوس كما هو الحال عند التَّيَّب ، حيث تجمع كل صور الآلهة الموجودة في المنطقة بصورة تبدو وكأنها تستمد حياتها وقوتها من الإله الأكبر . ولا تقتصر العبادة على الطقوس التي كان يؤديها الإنسان الأول للمعبود ، بل شملت الطاعة المطلقة لأوامر المعبود ، وكذلك اجتناب نواهيه ، فهو في نظره " مقدس " أى " تابو" .

### فما معنى التابو؟

هي كلمة بولينية أصلها في هذه اللغة " Tapu " ، اكتشفها الرحالة الإنجليزي "جيمس كوك James Cook" في الجزر الواقعة في المحيط الهادى ، وذلك في عام ١٩٧٧م وهي من الكلمات التي يصعب ترجمتها ترجمة دقيقة ، ولذا أصبحت مصطلحاً علمياً في الكتابات "الأنثروبولوجية" ، والاجتماعية ، ولدى علماء الأديان في جميع اللغات ، ويقصد بها الأشياء المقدسة ، وكذلك الأشخاص الذين لا يجوز لأحد الاقتراب منهم ، وإلا عرّض نفسه للخطر ، كما يقصد بها الأشياء ، أو الأشخاص الدنسة ، أو النجسة الذين لا يجوز لاقتراب منهم - أو منها - أيضاً ، وإلا أصيب بشئ من هذه الدناسة أو النجاسة ، وفي كلتا الحالتين - سواء كان المنع من الاقتراب للقداسة أو الدناسة - ينال العقاب من يخالف هذه التعاليم .

ويرى " Nölle " أنها- أى كلمة "التابو"- تؤدى معنى كلمة " Mana " (أى الطاقة السحرية ) ، إذ يلاحظ كلا المعنيين فى تصور المقدس ( التابو ) لدى الشعوب البدائية. ولا يقتصر تحريم الاقتراب على الأشياء ، أو الأشخاص المقدسين - لأن لديهم الطاقة السحرية، أو تكمن فيهم القوة الغيبية - بل تتناول كل ما حرّمه الكاهن فى المجتمعات البدائية ؛ فتصان حرمة رئيس القبيلة ، طبقاً للعادات والتقاليد الدينية ، كما يحرم لمس الحائض والنفساء ، وكذلك الميت ، وإلا لحق الضرر من يخالف هذا .  
وعليه يكون معنى " التابو " : لا يجوز فعل كذا ... أو لا ينبغي الاقتراب من كذا ... إما لقداسته ، أو لدنسه ونجاسته .

ويرى " فرويد Freud " فى كتابه عن " الطوطم والتابو " ، أن أقرب ترجمة للكلمة هى : " الخوف المقدس " لأنها تجمع بين خاصية القداسة ، التى تتمتع بها الأشياء - التى تعتبر "تابو " - وبين التحريمات والقيود ، التى تُفرض على الناس إزاء هذه الأشياء ، كتحريم لمس الحائض والميت ... وغيرهما من الحرمات .  
وتختلف قيود " التابو " عن قيود العادات والتقاليد الاجتماعية ، فى أن الأخيرة لاتصدر عن أمر إلهي، ولكن الناس أنفسهم يفرضونها بأنفسهم ، كما تختلف عن النواهي الأخلاقية ، فى أنها لاتدخل ضمن نظام متماسك يرر لنا هذه التحريمات ، ويبين أسبابها وأصلها ، ولذا فإن قواعد التحريم فى " التابو " تُقبَل على علاقتها كأمر لامفر منه .

ويعتقد بعض " الأنثروبولوجيين " أن " التابو " هو أقدم قانون غير مكتوب للجنس البشرى. وتحريمات "التابو" تحريمات قاطعة ، ولذا فإن خرق " التابو " يستتبع بالضرورة توقيع العقوبة والجزاء ضمنياً، وإن كانت هناك حالات يتولى المجتمع ذاته توقيع العقوبة على المعتدى فيها ، على اعتبار أن خرق " التابو " يُلحق الأذى ، ليس بالشخص المعتدى وحده ، وإنما بالمجتمع ككل ، وجعله هو نفسه - أى المجتمع - " تابو " ، أى مصدر للأذى، لأن للتابو القدرة على الانتقال من شئ لآخر ، ومن شخص لآخر .<sup>59</sup>

**ولكن ، كيف بدأ تصور الإنسان الأول للمقدس - أو لـ " التابو " أو للمعبود - وبالتالي ، كيف نشأت**

**العلاقة بين الإنسان " العابد " وبين هذه القوة الغيبية ، التى أطلق عليها فيما بعد: " الإله " ؟**

<sup>59</sup> ( أنظر فريزر ص ١٣٠ )

تكاد تكون فكرة الإله الأعلى موجودة لدى جميع القبائل كـ " الزولو " بجنوب إفريقيا ، و" الأشانتي " بساحل العاج ، و " اليوروبا " بنيجيريا ، و " البركونجو ،. بانجولا، و" النجومية " بجمهورية الكونجو . بل إن لدى الأقزام – وهم أقدم سلالات إفريقيا – كائناً أعلى يطلقون عليه اسم " مونجو " ، وهم يتمسون منه الفوز بالصيد ، كما لا يأكلون بكر الثمار قبل أن تُطْرَحَ في الغابة باسم " مونجو " . ويقول القزم حين يطرحه : " مونجو ! هذا لك " . ويخص بكر الحصول له ، لأنه خلق أشجار الفاكهة ، وساعد على نضج ثمرها. وإلى هذا الكائن الأعلى يعزو الأقزام أيضاً خلق جميع الأشياء ، وأنها ترجع إليه .

وفي قبائل " اليوروبا " في غرب نيجيريا يُطلق على الإله الخالق : الأب ، والسيد ، والعظيم ، مالك النفس ، أو الروح ، وأصل العظمة ..... ويعتقدون أنه خالق كل شيء ، والقاضي على الناس ، الآن ، وبعد الموت ، المحافظ على القوانين الأخلاقية . كما يطلق عليه أسماء كثيرة ، غير أن أكثره شيوعاً هو : " أولورن " التي تعني : مالك الجنة .

### لماذا إذاً لا يعبد البدائيون هذا الإله الأعلى وحده ؟

يجيب على هذا بعض الباحثين بأن البدائي يعتقد أن من الغباء إهمال القوى الأقل شأنًا من الإله الأعلى ، لأنها أكثر قرباً منه ، وأكثر ملاحظة ، وبالتالي قد تسبب له متاعب أكثر من الله العظيم ، كما يمكنها أن تكون أكثر خدمة في حالة الأزمات .  
قال أحد أهل هذه العقيدة :

"إننا نقدم القرابين للآلهة الصغيرة ، ولكن حين لا يفلحون في إجابة مطالبنا ، نلتجئ إلى الإله الأعلى ، وهذا هو الحق ، إننا نقرب من رجل عظيم عن طريق خدمه ، ولكن حينما لا يفلح الخدم في أداء مأموريتهم ، نلجأ إلى آخر معقل للأمل .

من أين استمد الإنسان الأول اعتقاده في وجود آلهة تربيين منه، يلجأ إليهم عند الحاجة ، ويسألهم

العون عند الشدة ؟

## المذهب الروحي

انقسم العلماء في إجابتهم على هذا السؤال إلى قسمين: قسم ذهب إلى أن الدين مسألة فردية ، بينما ذهب الفريق الآخر إلى أن الدين ظاهرة اجتماعية ، وبالتالي اختلفوا في مصدر اعتقاد البنائي في وجود القوة الغيبية.

فالذين نظروا إلى الدين على أنه مسألة فردية ، أى أنه شعور فردى ينبع من داخل الإنسان كفرد ، رأوا أن العقيدة في هذه الآلهة تولدت من اعتقاد الإنسان في وجود الروح ، وجاءه هذا الاعتقاد من تجاربه الشخصية ؛ ذلك أنه لاحظ أن حياته مزدوجة في يقظته ومنامه ، فتصورهما على أنهما حياتان مختلفتان " فما يراه في نومه - أى في حلمه - إنما هو تعبير عن حياة حقيقية قضاها ، لها كل مقومات الحياة التي يمارسها أثناء اليقظة ، فحين يحلم أنه زار بلاداً بعيدة ، يعتقد عن يقين أنه زارها . ويستخلص من هذا أنه يوجد فيه كائنان :

أحدهما : الجسد، وهو الكائن الملتصق على المكان الذي نام فيه ، وله صفات مادية من تميزه في المكان وعدم انتقاله .

وثانيهما : كائن آخر له قدرة على التنقل من مكان إلى مكان ، في الوقت الذي يكون الكائن الأول - وهو الجسم - ساكناً في حالة النوم. ومن التجارب المتعددة التي تحدث للبدائي في نومه ، وما يراه فيه من أحلام ، ومن ملاحظته أن من يقابلهم في حلمه ، هم أيضاً أجسام بعيدة ونفوس قريبة منه ..... من هذا كله ثبت له أن فيه كائناً آخر غير الجسم ، يستطيع - في ظروف معينة - أن يترك هذا الكائن العضوي الذي يسكن فيه ، وأن ينطلق بعيداً عنه " .<sup>60</sup>

" وليس المقصود بالروح هنا مبدأ الحياة الحيوانية ، أعني تلك القوة التي تقوم عليها وظائف النمو ، والتنفس ، والحس ، والحركة ، بل المقصود نوع آخر أسمى من ذلك ، هو مبدأ حياة التفكير ، والإرادة المنظمة ، والعاطفة ، والضمير ، وبالجملة مبدأ الحياة العاقلة الرفيعة " .

عندما استقر في ذهن البدائي وجود هذه الروح ، وأنها قادرة على الانفصال عن الجسد أثناء النوم ، تبادر إلى ذهنه إمكانية انفصال هذه الروح عن الجسد عند الموت ، وبقيتها حية ، على الرغم من انعدام جسد صاحبها ، وبالتالي يمكن أن تعود الروح إلى جسد صاحبها مرة أخرى ، ومن هنا نشأت فكرة عودة

الميت إلى الحياة ، كما اعتقد اعتقاداً جازماً أن هذه الروح تقوم بأعمال خارقة ، لم تكن في قدرتها أثناء وجودها في الجسم ، " ذلك أن انتقال العنصر الروحي من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، ليس من شأنه حتماً أن يضعف سلطانه ؛ بل من المعقول أنه يزيده قوة ؛ لأن الروح في عهد اتصالها بجسم معين تظل شبه أسيرة لهذا الهيكل ، مشغولة بتدبيره ، وليس لها سلطان مباشر على غيره من الكائنات . ولذلك ليس من حقها في هذه الحال أن تُسمّى روحاً مسيطرة " ESPRIT " ، وإنما هي نفس مسخرة " âme " . فإذا ما قدر لها أن تنفصل عن ذلك الجسم بالنوم ، أو بالموت ، أو بسبب آخر ، أصبحت جديدة باسم "الروح" ، وأضحت أوسع مجالاً ، وأملك حرية العمل في الميدان الذى تختاره : إن نفعاً أو ضرراً ، من حيث لا يشعر بها أحد . "

ولذلك يخشى البدائي من أعمال أرواح أسلافه ، فيحاول استرضاءها ، كى يتقى شرها ، ويتزلف إليها حتى تكون عوناً له في مواجهة الشدائد ، " ففى ( بوين Buin ) تتدخل أرواح الموتى في حياة الناس ، فتعمل على نجاحهم ، أو فشلهم ، لذلك يتوجهون إلى الأسلاف لكي يحصلوا على عونهم ... فيحملون إليهم القربان ، وينحرون الضحايا ..... لأنهم يعتقدون أن الموتى يشيدون المنزل ، ويزرعون حقول الأرز ، ويقاسون جميع المتاعب التى تتطلبها حياة العمل ، ويجرى عليهم ما يجرى على الأحياء من عدم التكافؤ في الفرص . وهم يرون أن الموت لا يقطع بالضرورة تلك العروة التى تجعل أفراد مجموعة ما ، يتبادلون المساعدة فيما بينهم ، كما لو كانوا يتبادلونها وهم على قيد الحياة . فيستطيع الحى أن يساعد الميت ، ويزوده بالأغذية والأشياء الضرورية الأخرى ، ذات الخصائص السحرية ، والتمائم ، والطلاسم بجميع أنواعها ،

ليساهم في عملهم . " فما كنه هؤلاء الموتى الذين يعتبرون أحياء ؟

من العسير جداً ، إن لم يكن من المستحيل ، أن نكوّن عنهم فكرة مرضية ؛ إذ أن هذه التصورات تختلف من جماعة إلى أخرى ، تبعاً لتكوينها ، ودرجتها من التقدم .

يضاف إلى ذلك أن البدائيين في كل مكان تقريباً يعتقدون أن الميت الحديث يمر مرأً سريعاً بعدة حالات انتقالية ، قبل أن يصل إلى حالة نهائية نسيباً ، لا يخرج منها إلا بموت جديد ، أو بعودته إلى عالم الأحياء . وكثيراً ما تتعارض هذه التصورات فيما بينها . ونحن نعرف أنها شديدة الارتباط بالناحية الانفعالية ، وأن العقلية البدائية لاهتم بالتأليف المنطقي إلا قليلاً ، وأنها في نهاية الأمر لا نجد في أى هيئة اجتماعية بدائية مجموعة من التصورات ترجع إلى زمن واحد ، وتكوّن نظاماً مؤتلفاً ، فكل مالدينا منها يجعلنا نظن أن بعضها جد قديم ، وأن البعض الآخر جاء متأخراً فاختلف بذلك الرصيد الأول على مر القرون ، دون أن يكون

ملائماً تمام الملائمة . فليس أماننا إلا نوع من المزيج المختلط ، أو الكل المعقد ، الذى يصعب علينا تحليله ، صعوبة معرفتنا لطبقات قطعة من الأرض لا يرى منها إلا سطحها .

هذا الغموض الشديد الذى يحيط بطبيعة التصورات نفسها ، يزداد غموضاً على غموض بين أيدي الباحثين الذين ندين لهم بمعرفتها ؛ إذ أهم مجموعتها ، وهم متأثرون بأفكارهم السابقة المتصلة ببقاء الروح وخلودها .

لذلك لا يحسبون أى حساب للفرق الذى يفصل بين تفكيرنا التصورى المعنوى ، وبين تفكير البدائيين البعيد عن ذلك كل البعد ، فتأتى ملاحظاتهم بعد هذا التزييف الذى اعترأها ناقصة إلى حد كبير وغير مفيد فى غالب الأحوال . وذلك لأن كلمة روح " âme " من جهة ، والفكرة السائدة عندنا عن علاقة الروح بالجسم من جهة أخرى ، يسببان نوعاً من الخلط يستعصى على الحل . ولما كان قانون المشاركة يتحكم فى التصورات الخاصة بالتعامل بين الأحياء والأموات ، كان الأموات يعتبرون حاضرين بالرغم من أنهم غائبون ، وكانت أرواحهم مندججة فى جنتهم التى تتحل بالرغم من استقلال الأرواح عنها ؛ فلا تكاد تنقضى بضعة أيام على موت الفقيد ، حتى يكون فى آن واحد موجوداً فى قبره ، وبجوار المنزل الذى مات فيه ، وبعيداً عنه فى طريقه إلى إقليم الظلال ، إذا لم يكن قد وصل إليه بالفعل .

أما الأشخاص الذين كانوا فى حياتهم يحتلون مكاناً مرموقاً ، ويشغلون وظائف هامة ، فإنهم يستمرون فى ممارستها ، بالرغم من أن غيرهم قد خلفهم فيها . فيعتقد كثير من قبائل " البنتنو " مثلاً أن رؤساءهم المتوفين يظلون بمحومهم عند الحاجة ، ويوفرون لهم المطر ، وينظمون اطراد الفصول كما كانوا يفعلون من قبل ، وكثيراً ما يظلون مالكين لماشيتهم ، التى لا يجوز لأحد التصرف فيها ، ولهذا يوكلون بها حراساً يجرسونها . وفى العادة يتبعهم فى عالمهم الآخر بعض نسائهم ، وعبيدهم ، وبعض الأشياء التى تحمل طابعهم الشخصى ..... وعلى كل حال يُعتبر الأموات بوجه عام ، على اختلاف درجاتهم ، جزءاً متمماً للهيئة الاجتماعية لدى البدائيين . ولا يحس الفرد من أفراد الهيئة الأحياء بأنه منفصل عنهم تمام الانفصال ، بل تظل عليه الالتزامات نحوهم ، ولا يدهشه من أمر هذه الالتزامات شيئاً إلا إذا فرضنا أنه يدهش أيضاً من التزاماته نحو الأحياء .

فالتصور الطبيعى لظاهرة الموت أمّا انفصال لعنصرى المادة والروح ، يرجع به كل منهما إلى طبيعته وبينته : فتعود المادة إلى عالمها ، وتأخذ الروح صورة أخرى من صور الوجود الغيبى . وهكذا ينشأ الاعتقاد

بوجود أرواح مستقلة عن الأبدان.<sup>62</sup> ذلك أن انتقال العنصر الروحي من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ليس من شأنه حتماً أن يضعف من سلطانه ؛ بل من المعقول أنه قد يزيده قوة ؛ لأن الروح في عهد اتصالها بجسم معين تظل شبه أسيرة لهذا الهيكل ، مشغولة بتدبيره ، وليس لها سلطان مباشر على غيره من الكائنات. ولذلك ليس من حقها في هذه الحال أن تسمى روحاً مسيطرة "esprit" وإنما هي نفس مسخرة "âme". فإذا ما قدر لها أن تنفصل عن ذلك الجسم بالنوم أو بالموت أو بسبب آخر ، أصبحت جديرة باسم "الروح" ، وأضحت أوسع مجالاً ، وأملك حرية العمل في الميدان الذي تختاره : إن نفعاً أو ضرراً ، من حيث لا يشعر بما أحد .

وقد أظن الأستاذ "Mainhof" في الحديث عن تحول الأموات التدريجي إلى أسلاف ، فقال: " بعد زمن ما تفقد النفس خصائصها البشرية شيئاً فشيئاً وتصبح روحاً ، وحينئذ تصبح هذه الأرواح موضوعاً لعبادة حقيقية ، وتعتبر صديقة أو عدوة على حسب استعداداتها. وتصبح تلك الأرواح التي ذابت بعضها في بعض ، في نظر أهالي أفريقيا الاستوائية ، قوة مروعة ، توحي بالخوف الشديد . وتسميها قبائل الشمال : "Muzimu" ، وليس لهذه "الموزيمو" شخصية الكائن البشري ، كما أنها ليست روح رجل معين ، إنما القوة التي تبعث بكل المصائب ، والتي لا بد من العمل على تهدئتها ".<sup>63</sup>

وعليه فيمكن القول بأن الاعتقاد في الأرواح ينقسم إلى قسمين :

**الأول :** أن في الوجود كائنات عاقلة لا يقع عليها الحس ؛ سواء أكانت في الأصل أرواحاً إنسانية أم كانت روحاً أعلى من ذلك وأسمى .

**الثاني :** أن هذه الكائنات الغيبية ، المزودة بتلك القوة الخارقة ، قد تتصل بعالم النفس أو عالم الحس من الحياة الإنسانية وتترك فيه أثراً من آثارها العجيبة .

<sup>62</sup> يرى "تايلور Tylor" أن ملكة الاستحياء "Animism" هي أصل الاعتقاد بالأرباب ؛ فالطفل يضرب الكرسي إذا أوقعه كما يضرب الإنسان والحيوان ، وتايلور يعتقد أن الإنسان الأول كان كالطفل في تخيله للأشياء ويمثله لها في صور الأحياء... فالنجوم أرباب حية تشعر وتسمع وتطلب ما يطلبه الحي من غذاء ومتاع ، وكذلك الرياح والسحب والنباتات والعيوض الطبيعية على اختلافها . فلا جرم يشعر الهمجي الأول بما حوله من هذه القوى الحية شعور الرهبة والرغبة ، ويحتاج إلى استرضائها بالصلاة والدعاء كما يسترضى الأقوياء من بني قومه بالملق والرجاء . ويسبق هربرت سبنسر هذا التفسير بتفسير يوافق في ظواهر الاستحياء ولا يوافقه في تعليل الاستحياء ؛ فالإنسان الأول - على ما يرى سبنسر - كان يؤمن بحياة الأرباب لأن عبادة الأسلاف هي أقدم العبادات ، وكان يصرى الأطفال في المنام فيحسب أنها باقية ترجى وتخشى ، وأنها تقاضاه فروضاً لها عليه كفروض الآباء على الأبناء وهم يقيد الحياة .

[ العقاد : ١٦ - ١٧ ]

<sup>63</sup> (راجع : ليفي بريل ص ٧١ ، ٧٥ ، ٨٣ )

ويتوجه البدائي إلى هذه القوة بالصلوات والأدعية ، " وقد شرح الأستاذ " جونو Junus " طبيعة الصلاة الدائمة التي توحد بين القبيلة وأسلافها ، وهي تقوم على قاعدة المشاركة مضافاً إليها الإحساس بوجود قوة عليا لدى الأسلاف ، إذ يعتقدون أنه يمكن رجاؤهم ، والتوسل إليهم بتقديم القران لهم ، ولكن لا يمكن إرغامهم بصورة ناجحة .

فإذا ما نجح هذا القران في إرضاء الآلهة ( يعنى الأسلاف ) وهبوا أحفادهم محمولاً وافرأ (لأن غر الثمار الطبيعية وتزوجها يتوقف عليهم ) ، وصرحوا لهم بقطع الأشجار ، وفي هذه الحالة يضمنون ألا تسقط عليهم الجذوع الضخمة فتسحقهم. أما إذا ذهبوا لقطعها دون إذن الآلهة ، لم يكن هناك مفر من وقوع بعض الحوادث. وإذن ، فمنع الشر هو الغرض الجوهرى من تقديم الضحايا ، وإعطاء الطعام للأرواح وإغداق الهدايا عليهم .... كل ذلك من شأنه أن يحملهم على جعل الأشياء تسيير في طريقها الطبيعى السعيد، وعلى منع النكبات من أن تعكر صفو الرخاء الشامل . وهناك أيضاً ضحايا تكفير ، يقصدون بها التلطيف من حدة غضب الأرواح ، وضحايا أخرى يقصد منها إنهاء بعض المعارك بواسطة الصلح ..... وهلم جرا " .<sup>64</sup>

تلك هى فكرة النفس التي انتقلت من مبدأ حيوى في جسم الإنسان ، إلى أن أصبحت روحاً ، أو قريناً ، خيراً أو شراً ، أو إلهاً ..... ولكن إذا كان الموت هو الذى حوّل تلك النفس الإنسانية إلى روح مقدس ، فإن أول عبادة إنسانية ، إنما اتجهت إلى الموتى .... إلى نفوس الأسلاف ..... وكان الطقوس الأولى طقوساً للموت ، وكانت أولى التضحيات قرابين غذائية تشبع حاجات الموتى. وكانت أولى المذابح التي تقدم عليها القرابين ..... هى القبور واللحود .

هذا مجمل ما قاله العلماء حول تفسير ظاهرة عبادة الأسلاف .<sup>65</sup>

<sup>64</sup> المصدر السابق — ٨٤ - ٨٥

<sup>65</sup> أشار علماء الإسلام إلى عبادة الأسلاف في معرض تفسيرهم لعبادة الأصنام ، فقد قال البخارى . حدثنا إبراهيم ، حدثنا هشام عن جريج ، وقال عطاء عن ابن عباس : صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعده : أما ود فكانت لكلب بدمرة الجنادل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يفرث لمراد ، ثم لبني غظيف عند ماب ، وأما يعوق فكانت لحمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذى كلاع ، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام ، فلما هلكوا أرحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً ، وسجوها بأسمائهم ففعلوا ، فلم يُعبد حتى إذا هلك أولئك ، ونسخ العلم غبّت .

( ابن كثير : تفسير القرآن العظيم — ٧ — ١٢٦ )

## ولكن كيف نشأت عبادة الأشجار والأحجار والكواكب وغيرها من الظواهر الطبيعية ؟

### المذهب الطبيعي

يرجع تأصل هذا المذهب إلى عالين كبيرين ، هما : " ماكس موللر Max müller " ( ١٨٢٣ - ١٩٠٠م ) ، و " أدلبرت كون Adalbert Kuhn " ( ١٨١٢ - ١٨٨١م ) ؛ فقد نشر الأول كتابه : " الأساطير المقارنة " في عام ١٨٥٦م ، وأسس الثاني بكتابه " Zur ältesten Geschichte der indogermanen Völker " علم اللغة عند شعوب الهندية - الجرمانية . وهما يتشابهان في كثير من الآراء التي انتشرت بعد ذلك في أوساط العلماء مما جعل الدراسات اللغوية تسيطر على من جاء بعدهما ، فاكسبت قيمة في مجال علم الأديان . غير أن موللر يعتبر الأب والمؤسس للمذهب الطبيعي في نشأة الدين ، وقد اعتمد في بحثه في هذا المجال على التجربة الحسية ، فهو يقول : " ينبغي أن يبدأ الدين بتجربة حسية ، لكي يأخذ مكانه الذي يردده إلى عنصر مشروع بين معارفنا ، معتمداً في ذلك على مبدأ تجريبي قديم : لاشيء في العقل ما لم يكن من قبل في التجربة . أخذ هذا المبدأ وطبقه على الدين ، وقرر أنه لاشيء يتحقق في عقيدة الإنسان ، ما لم يكن قد أتى قبل عن حواسه . أو بمعنى أدق : إن الإيمان هو ما وقر في القلب ، ولكن هو أولاً ماصدقته الجوارح " .

يرى بعض العلماء أن الإنسان الأول نظر إلى الطبيعة ، فهاله ما يرى من قوة جبارة ، تبدو أمام عينيه هنا وهناك ، وحيرته قوى الطبيعة الكبرى ، كالشمس ، والرعد ، والبرق .... وغيرها ، فظن أن هذه القوى الساحرة الغلابة مستقلة عن إرادة البشر ، بل إن البشر يخضع لها عن طريق تأثيرها في جميع نواحي الحياة ، فهي التي تعطيه متطلبات حياته : من ماء ، ودفء وثمار .... كما أنه توجس خيفة من غضب الطبيعة ، وزجرهما : رعداً ، وبرقاً ، وريحاً عاتية ، وفيضانات مدمرة ، فأيقن أنه عاجز عن مواجهتها ، فركن إلى عبادتها ، وتقديسها ، وتقديم القرابين إليها ، كي ترضى عنه فتمنحه عطاءها ، وتحميه من شر ظواهرها .

ومن أشهر مقررى هذا التفسير - كما ذكرنا سابقاً - العالم الألماني " ماكس موللر Max Müller " في كتابه : " الأساطير المقارنة " .... وهو لا يبينها على (اعتبارات نفسية فقط) ، بل يستند فيها إلى وثائق لغوية ، استمدتها من دراساته المقارنة للأساطير والتماثيل القديمة ، وعلى الأخص من دراسة " الفيدا " ( كتاب الديانة البراهمانية ) ، حيث وجد أن أسماء الآلهة فيها هي في الغالب أسماء لتلك القوى الطبيعية

العظيمة ، كالسما ، والنار ، ونحوهما ، وأن هذه الأسماء بعينها تتشابه حروفها في سائر اللغات المسماة " بالهندية الأوروبية ". فخلص من ذلك إلى أنه - قبل تشعب الشعوب الإنسانية ، وخروجها من موطنها الأول - كانت هناك لغة واحدة تعبر عن هذا التقديس العام لقوى الطبيعة الكبرى ، فتكون إذاً هي الفكرة الأولى قبل ظهور الحضارات .

فإذا بحثنا عن ظاهرة من ظواهر الطبيعة تجسد لنا هذه النظرية ، فسنجد أن أوضح مثل لهذا هو فكرة النار.... فهناك إحساس طاغٍ متدقق أهمته النار أول ظهورها في الشعور الإنساني . ظهرت له النار في صور مختلفة : من شهاب لامع ينقض عليه من أعلى السماء ، من احتكاك حجرتين أو غصنين يابسين ، أو على أى صورة كانت... وكانت تحمل معها أحياناً الموت والدمار ، وأحياناً تقدم له ألواناً من السعادة والحياة المثية : تدفئه شتاء ، أنارت له الليل ، وعاونته على أكل لحم غير نء . ثم اتخذ النار بعد ذلك وسيلة تصنع الآلات والأسلحة . بل أصبحت النار شرطاً هاماً لكل تقدم عملي وفني .

ولم يستطع الإنسان أن يقيم أية علاقات مع الطبيعة وأن يفهمها بدون أن يستفهم مابعد الطبيعة اللامتناهى . وكل شيء في الطبيعة يرمز إلى قوة لامتناهية : النهر الذى يجرى ، يظهر القوة اللامتناهية ، طالما لم يجف ماؤه ولم يغض . لاشيء في الطبيعة إلا ويوقظ فينا الإحساس العنيف عن اللامتناهى . هذا الإحساس فى أعماقنا ويسيطر علينا ، وعن هذا الإحساس فاض الدين ونشأ.<sup>٦٧</sup>

فتدين الإنسان الأول يرجع - طبقاً لهذا الرأى - إلى إحساسه بروعة الطبيعة ، وجمال الكون..... مما دفعه إلى الاعتقاد فى أنها تملك قوة مجهولة ، قادرة على فعل المستحيل ، فاعتقد فى هذا المجهول<sup>٦٨</sup> ، ورمز له بشئ من مظاهر الطبيعة التى تكشف عن هذه القوة: كالشمس ، والقمر ، والرعد ، والبرق ،.... الخ ، وأحياناً النبات كالأشجار والثمار ، فتوجه إليها بالعبادة ، وأقام لها الطقوس ، وقدم لها القرابين . ويُعترض على هذا بأنه لو كان منشأ الدين هو النظر إلى جمال الطبيعة وجمالها ، لكان يجب أن يوجه التقديس أول كل شيء إلى القوى الكونية العظمى : إلى الشمس ، والقمر ، والبحر ، والجبال ، والرياح ،

<sup>67</sup> المصدر السابق : ٧٣-٧٤

<sup>68</sup> ( ومصداقاً لهذا الرأى يرجح مولر أن الإنسان قد تدين منذ أوائل عهده ، لأنه أحس بروعة المجهول ، وجمال الأبد الذى ليس له انتهاء ، وأنه مثل هذه الروعة بأعظم ما يراه فى الكون وهو الشمس التى تملأ الفضاء بالضياء ، فى محور الأساطير والعتقاد ، كما ثبت له من المقابلة بين اللغات واللهجات .

وأشبه ذلك ؛ لا إلى محقرات الأمور من أنواع النبات والحيوان ، التي هي - كما يرى أصحاب هذه النظرية - أقدم من تلك في توجه الإنسان إلى عبادتها .

غير أن هناك رأياً يقول : إن عبادة الطبيعة انبثقت من عبادة الأسلاف التي بينها سابقاً ، ويعمل أصحاب هذا الرأي ذلك ، بأن الناس في المجتمعات البدائية تعودوا على إطلاق " أسماء حيوانات ، أو نباتات ، أو نجوم على كل فرد إبان مولده ، أو بعد ذلك ، فامتزجت هذه الأسماء بشخصيات مَنْ أُطْلِقَ اللفظ عليهم. وساعد على هذا غموض اللغات البدائية ، وعدم تمييزها بين المجاز والحقيقة. ثم تعاقبت الأجيال ، ولم يميز البدائي بين المعنى المجازي لهذه الألفاظ والمعنى الحقيقي ، فَعَبَدَ الأسلاف ، وَعَبَدَ كل ما يتصل بهم من أسماء وأشياء . فالسبب الحقيقي إذن في نشأة عبادة الطبيعة هو تفسير الألفاظ المجازية كما هي".<sup>69</sup>

## نقد النظرية

يرى دوركايم أن الإنسان حقيقة يتجه نحو الطبيعة محاولاً تفهمها ، ويتأمل في الكون محاولاً تفسيره. ولكن هل يمكن القول : إن الفكر الديني نشأ عن هذه التأملات؟ إن الإنسان يتأمل في الطبيعة لكي يستطيع أن يتحكم فيها، أو يؤثر فيها بشكل خاص . إذا سرنا مع سياق هذا المذهب الطبيعي ، لرأينا أنه إذا كان الإنسان قد عبد الظواهر الطبيعية ، وقدم إليها الصلوات والقرابين والضحايا ، فإنه إنما قد فعل هذا لتحقيق له مايرتثيه من غايات وأغراض . ولكن هل يستطيع البدائي أو غير البدائي أن يتحكم في الظواهر الطبيعية ، فيستطيع أن يشكلها كما يشاء؟ يحس أن العاصفة ستقبل ، فيصلى ، ويضحى ... يقوم بكل الطقوس المطلوبة . فهل تكف العاصفة عن الهبوب؟ سيتبين له بعد قليل أن كل ما قام به من طقوس دينية لم تنجح أى نجاح في رد العاصفة ، وحينئذ يتبين له ما في أفعاله من عبث ، وما في التوجه نحو عبادة الطبيعة من خطأ.... ويستمر دوركايم في نقده للمذهب الطبيعي في نشأة الدين ، فيقول : إن أهم ما يميز ظواهر الطبيعة هو نظامها . فنظامها راتب على نسق واحد لا تخلف فيه : تشرق الشمس من الأفق كل صباح ، وتختفى كل مساء ، يكمل القمر دائرته كل شهر ؛ يجرى النهر بشكل راتب لا ينقطع ؛ الفصول نفسها تحدث وتضى وتعود . حقاً قد يحدث بعض النشاط في تلك الدورات المنتظمة ، كسوف الشمس وخسوف القمر.... غير أن هذه الإحساسات العابرة لاتولد إلا إحساسات مؤقتة ثم تنتهي ، ولا يمكن على الإطلاق

<sup>69</sup> (النشاز : ص ٤٠)

أن تستخدم تلك الإحساسات أساساً لمذاهب ثابتة وطقوس دائمة . إن سياق الطبيعة في العادة سياق منتظم متناسق ، والتناسق لا يوحى على الإطلاق بالمشاعر القوية المتفجرة . وإن من الخطأ السبب أن ننسب إلى البدائي القدرة على التفكير والتأمل في تلك المظاهر المتناسقة الراقية واستكشاف العجائب في هذا النظام البديع . ثم إنه لا يكفي على الإطلاق أن نعجب بشيء لكي نعتبره مقدساً . إنما ينبغي أن نميز تمام التمييز بين انفعالات الدهشة والعجب وبين الشعور الديني .<sup>70</sup>

واستبعد بعض الناقدين أن يكون النظر في صحيفة الكون سبباً في إيقاظ الشعور الديني العميق ؛ فقال: إن استمرارها على نسق واحد يجعلها أمراً مألوفاً ، لا يلفت النظر ، ولا يحتاج إلى تحليل . وعلى فرض أنها تبعث الدهشة والخشوع في نفوس المفكرين ، فليس لها هذا الأثر في تلك العقول الساذجة .<sup>71</sup>

لقد بُنيَ المذهب الطبيعي على مجموعة من المسلمات اللغوية المختلفة ، وقام على دراسة عميقة للغات الأوروبية الهندية ممثلة على الخصوص في الفيدا . وقد انبرى جماعة من علماء اللغة يناقشون كثيراً من آراء ماكس مولر ، وخاصة فكرة توافق الأسماء التي تدل على الآلهة وتطابقها في اللغات الأوروبية ، منكرين التفسيرات المختلفة التي وضعها محاولاً بذلك ارتباط اللغة ( في مجال الطبيعة ) بنشأة الدين .

غير أنه لما كانت الديانة بمعناها الحقيقي لا توجد إلا حيث يوجد اعتقاد بكائنات حية عاقلة ، فعالة ، يُتَوَجَّه إليها بالعبادة ، لزم السؤال عن سبب هذا التطور الفكري: من النظر في مشاهد الطبيعة ، إلى التفكير في تلك الكائنات الروحية .

يجيب ماكس مولر : بأن هذا من أثر اللغات نفسها ، لأنها في العادة تنسب لكل طاهرة فعلاً يشبه أفعال الإنسان ، فنحن نقول: إن النهر "يجرى" ، والشمس "تطلع" ، والهواء "ينثر ويزجر" ، والنار

<sup>70</sup> المصدر السابق ص ٨٦ - ٨٧

<sup>71</sup> هنا يحسن التشبيه إلى أن أكثر الباحثين يقررون الفرق بين العقول المستترة والجاهلة على هذا الترتيب ، ويرون أن هذا الشعور الرهيب ، الذي يدعو إلى تحليل الظواهر الكونية بقوى سرية عظيمة محدثها ، إنما يخالط العقول الفطرية التي لم تنمرس بالعلم الطبيعي وقوانينه . ولاشك أن تقرير الفرق على هذا النحو أقرب إلى الفهم من مقابله ، ولكنه لا يقل عنه خطأ ، إذ الواقع المشاهد هو أن العلم لا يضعف هذا الإحساس بل يزيده قوة . وناهيك بكلمة الفيلسوفين : " باسكال Padcal " و " كانت Kant " حيث يقول أولهما : " إن هذا الصمت الأبدي لذلك الفضاء اللانهائي ليقدف في قلبي روعة ورهبة " " **Le silence eternel des espaces infinis** " ويقول الآخر : " شيطان يملآن قلبي إعجاباً وإكباراً يتجددان وينموان كلما عملت فيهما تأملتي: السماء المزدانة بالنجوم من فوق ، وقانون الأخلاق في ضميري" : " **Deux choses remplissent le coeur d'une admiration et d'une vénération toujours nouvelles et toujours croissantes, à mesure que la réflexion s'y attache et s'y applique:le ciel étoilé au-dessus de moi, et la morale en moi** " [ دراز : ١٢٤ ]

" تشهق أو تترفر " ..... إلى غير ذلك : فهذه التعبيرات التي كانت في أصلها تعبيرات مجازية تشبيهية ، طال بها الأمد حتى أخذت على حقيقتها ؛ فصارت هذه العناصر نفسها تأخذ في الأذهان صورة الكائنات الحية المفكرة ، ومن هنا نشأت عادة تمثيل الأفلاك ، والعناصر في رموز مجسمة على صورة الحيوان ، أو الإنسان. ولعب الخيال في ذلك دوراً هاماً : فكان تارة يرمز إلى الشيء الواحد بتمثيل مختلفة ، على عدد ماله من أسماء ، وتارة يرمز إلى الأشياء المتعددة التي يجمعها اسم مشترك باعتبارها حقيقة واحدة ، تتحول من نوع إلى نوع ..... وهكذا.<sup>72</sup>

وخلاصة القول :

نشأت عبادة الآلهة عند الإنسان الأول من اعتقاده في وجود الروح ، وتوصل إلى هذا عن طريق ما يراه في منامه . توصل من ذلك إلى عبادة الأسلاف ، لأنه اعتقد أن أرواحهم لا تموت ، وأنها قادرة على إيذانه ، كما تستطيع أن تقدم له خدمات كثيرة ، إذا هي رضية عنه .

### وهذا يسمى بالذهب الروحي

انبثقت عبادة مظاهر الطبيعة المختلفة من هذا الاعتقاد ، فبعضهم يرى أن سببها نفسى . وهو الإحساس بروعة الطبيعة وظواهرها فدفعه ذلك إلى عبادتها . والبعض الآخر ذهب إلى أن عبادة الروح هي أصل عبادة الطبيعة ، سواء كان ذلك عن طريق الاعتقاد في روح مجهولة تحرك هذه الظواهر ، أو عن طريق أن الأسلاف كانوا يُسَمَّونُ بمسميات مفردات الطبيعة ، فعبد الإنسان الأسلاف بمسمياتها ثم نسي الأسلاف، وعبد المظاهر الطبيعية التي تسمى بهذه الأسماء .

### وهذا يسمى بالذهب الطبيعي

وهناك من قال : إن نشأة عبادة الطبيعة راجعة إلى الاستعمال اللغوى ، إذ من المعروف أن الإنسان ينسب لكل ظاهرة من الظواهر الطبيعية فعلاً يشبه أفعال الإنسان مثل: " النهر يجرى ، والشمس تطلع ..... الخ " فلما طال الأمد على هذه التعبيرات المجازية أخذت على حقيقتها، فظن الإنسان بعد ذلك أن هذه الظواهر المنسوب إليها الأفعال كائنات حية مفكرة ، فتوجه إليها بالعبادة إتقاً لشرها ، أو طمعاً في مساعدتها له في مجالات الحياة المختلفة.

<sup>72</sup> ( المصدر السابق: ١٢٠-١٢١ )

## المذهب الاجتماعي

التوتمية<sup>٧٣</sup>

يرجع الفيلسوف الفرنسي - هنري برجسون - بالعقيد الدينية إلى مصدرين : أحدهما اجتماعي لفائدة المجتمع ، أو فائدة النوع كله ، والآخر فردي يمتاز به آحاد من ذوى البصيرة والعبقرية الموهوبة . فالحاسة الدينية الاجتماعية هي "حيلة نوعية" يلجأ إليها خيال النوع الإنساني لكبح الأثر الفردي وإقناع الإنسان بنسيان مصالحه في سبيل المصالح الكبرى التي تتعلق بما حياة النوع في جميع الأجيال ، فإن الإنسان لو استوحى عقله وحده خلد نفسه وأطاع لذته ، ولم يحمل الألم ، ولا الحسارة من أجل أبناء نوعه . ولما كانت إرادة الحياة مستكنة في النوع ، كما هي مستكنة في آحاده على انفراد ، نشأت من الغريزة النوعية ملكة يسميها برجسون بملكة الخرافة الرمزية ، أو ملكة الأساطير ، وتكفلت للإنسان بمخلق العوض الذى يستعص به عن منافعه ولذاته حين يهجرها لمنفعة نوعه . فاعتقد الجزاء بعد الحياة ، وأحس أنه محاسب على الإضرار بغيره ، مثاب على الخير الذى يسديه إلى أبناء نوعه ، واقتربت فيه أثر الفرد بأثر النوع ، فاستقامت على التوازن بينهما مصلحته ومصلحة الناس أجمعين .<sup>٧٤</sup>

ويرى دور كايم أن التدين وليد أسباب اجتماعية ؛ إذ يزعم أن عناصر التفكير ، وأسس المعرفة العقلية نفسها ، ماهى إلا صور ولدتها الجماعة وطبعتها على غرار النظم الاجتماعية ، وأن العقيدة الأولى التى انبثقت منها الأفكار الدينية هي مايسميها علماء الأجناس بالمذهب التوتمي .<sup>٧٥</sup>

<sup>73</sup> جرت عادة كثير من المعرئين أن يقلبوا التاء في الكلمة الأعجمية طاء ، فيقولوا مثلا "ميطافزيقا" بدلا من "ميتافيزيك" . وعلى هذه الطريقة كتب بعض الباحثين ، ومنهم جورجى زيدان وسلامة موسى ، كلمة "الطوطمية" وكلمة "الطوطم" بالتاء . وبعضهم كتبها بالتاء : توتمية ، وتوتم .

<sup>74</sup> العقاد : ٢٢

<sup>75</sup> أول كتاب ظهرت فيه كلمة "توتم" totism " كتاب إنجليزى ألفه جون ليج John Long الذى كان يعمل تراجمانا في شركة الهند Compagnie des Indes وطبع في لندن سنة ١٧٩١م تحت عنوان " أسفار ورحلات لترجمان هندي Voyages and Travels of an Indian Interpreter " وقد تضمن هذا الكتاب إشارات مقتضية إلى هذه الديانة ومتمثلة على عقائد وشعائر وما كان لها من أثر بين عشائر التوتود الأحمر .

ومن ذلك الحين عكف العلماء على دراسة هذه الديانة وتحليل عناصرها ، والبحث عما تقوم عليه من أصول . ولكنهم ظلوا في مبدأ أمرهم يظنون أنها مقصورة على السكان الأصليين لأمريكا ، وظلت بمخبرهم قائمة على هذا الظن ، حتى كشف الرحالة الإنجليزى " جراى Grey " في كتاب له ظهر سنة ١٨٤١م تحت عنوان " غربى استراليا وشمالها الغربى North-west and Western =

**Australia** = أن الديانة نفسها منتشرة بين السكان الأصليين لآستراليا . فأتسع بذلك نطاق بحوثهم ، وتكونت لديهم فكرة صحيحة عن مدى انتشار هذه الديانة ، وظهرت لهم منها أشكال جديدة لم تكن معروفة من قبل .

ثم تبين لهم فيما بعد أن هذه الديانة رواسب وأشباهاً ونظائر في كثير من ديانات العالم القديم نفسه وفي كثير من عادات شعوبه وتقاليدها . فقد كشف العلامة "ماك-لينان Mac-Lenan" في مقالات نشرها في مجلة "Fortnightly Review" في أعدادها الصادرة من سنة ١٨٦٩م إلى سنة ١٨٧٩م عن هذه الرواسب والأشياء والنظائر في كثير من ديانات العالم القديم ، وخاصة ديانات اليونان والرومان ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فقرر أن كل ما يتصل بتقديس الحيوان والنبات في الديانات الإنسانية يرجع إلى أصل توغى . وجاء من بعده العلامة "روبرتسون سميت Robertson Smith" فكشف في بحثه في " القرابة والزواج عند العرب في الجاهلية " وفي " ديانة الساميين " = " Kinship and Marriage in Early Arabia ,The Religion of the Semites " عن آثار الديانة التورمية ورواسبها عند الشعوب السامية. وظهر لكثير من المشتغلين بدراسة الحضارة المصرية القديمة " Egyptologues " عدة رواسب من التورمية في عقائد قدماء المصريين. وجاء من بعد هؤلاء جميعاً العلامة " فريزر Sir Jagem's Frazer " فكشف في كتابه الخالد " الفصن الذهبي The Golden Bough " عن الآثار التي تركتها الديانة التورمية في العقائد والعادات الشعبية الأوربية " الفلكلور Folklore " . وكشف كثير من الباحثين عن عدة رواسب من التورمية في شمال إفريقيا ووسطها وشرقها وفي مدغشقر وجزر الملايو وبوليزيا وأندونيسيا والفلبين والهند الصينية والصين والهند وفي مواطن أخرى كثيرة في الدنيا القديمة .

وقد اتسع نطاق هذه الدراسات نوعاً ما بفضل البحوث التي قام بها المكتب الأمريكي لدراسة الشعوب " Bureau American d'Ethnologie " وبفضل البحوث التي قام بها العلامة الأمريكي " لويس مرجان Lewis Morgan " في كتابه الخالد عن " المجتمعات البدائية Ancient Society " الذي ظهر سنة ١٨٧٧م . ونقول " نوعاً ما " لأن هذه الدراسات كانت إلى ذلك الحين ناقصة من كثير من الوجوه ؛ وذلك أنها لم تعرض إلا لطائفة محدودة من عتائر السكان الأصليين لأمريكا وآستراليا ، ولم تعالج إلا بعض مظاهر من الديانة التورمية . وقد جمع العلامة فريزر خلاصة هذه البحوث في مؤلف صغير ظهر في سنة ١٨٨٧م تحت عنوان " التورمية Totemism " اقتصر فيه على وصف هذه المعتقدات بدون أن يحاول شرحها وتحليلها .

وأول دراسة مفصلة وافية لهذه الديانة هي الدراسة التي قام بها " بلدوين سنسر وجيلين Baldwin Spencer and Gillen " فقد أقام هذان الباحثان مدة طويلة بين عتائر السكان الأصليين لوسط آستراليا وشمالها ، ودرسا نظمها الاجتماعية القائمة على الديانة التورمية دراسة عميقة ، وضمنا دراستهما هذه كتابين كبيرين : ظهر أحدهما بعنوان " قبائل السكان الأصليين لوسط آستراليا The Native Tribes of Central Australia " ، وظهر الآخر بعنوان " قبائل السكان الأصليين لشمال آستراليا الوسطى The Northern Tribes of Central Australia " وجاء من بعدها العلامة " كارل سترهلو Carl Strehlow " فأقام مثلهما مدة طويلة بين العتائر الأسترالية الشمالية ، وأجاد لناغماً ، وألف في نظمها الاجتماعية القائمة على الديانة التورمية بحثاً قيمة دقيقة جاءت مؤيدة في كثير من مواطنها لما وصل إليه سنسر وجيلين في كتابهما السابق ذكرهما .

وما قام به سنسر وجيلين وسترهلو من دراسات مفصلة للقبائل الأسترالية الشمالية قام بمثلها الإنجليزيون " فيزون وهويت Fison and Howitt " بصدد القبائل الجنوبية . وقد ظهرت خلاصة هذه الدراسات في كتابيهما عن " كاميلاراي وكرفي Kamilaroi and Kurnai " الذي ظهر سنة ١٨٨٠م وفي كتاب هويت عن السكان الأصليين لجنوب آستراليا " The Native Tribes of South Australia " الذي ظهر سنة ١٩٠٤م وفي كتب أخرى كثيرة له .

تعتبر مشكلة الطوطمية من أهم وأطرف المشاكل التي عنى بها الأنثروبولوجيين ، وقد خصص لها فرينزر نفسه كتابه المشهور عن "الطوطمية والزواج الاغترابي" . ولكن على الرغم من كثرة استخدام الكلمة، فكثيراً ما يقع الكتاب في الخطأ في فهم مدلولها وخصائصها . وكلمة "طوطم Totem" نفسها مستمدة من كلمة شائعة عن هنود الإيجواي ، وإن كان النظام الاجتماعي الذي يرتبط بها يختلف من مجتمع لآخر مع وجود بعض عناصر أساسية مشتركة . ومع أن الكلمة تشير إلى علاقة معينة بين الإنسان والحيوان تستتبع قيام معتقدات وممارسات ذات طابع ديني ، فليس كل علاقة من هذا النوع تشير إلى وجود النظام الطوطمي . وأهم خصائص الطوطمية هي :

أ. ارتباط النظام الطوطمي بالتنظيم العشائري الذي تنقسم فيه كل قبيلة إلى عدد من العشائر المتمايزة .

ب. اعتقاد كل عشيرة بأن أفرادها ينحدرون من صلب طوطم معين (هو في الأغلب فصيلة معينة من الحيوانات ، وإن تكن هناك طواطم نباتية ، وفي أحيان قليلة طواطم من الجمادات) يكون بمثابة السلف الأول والمؤسس الحقيقي للعشيرة ، وبذلك يصبح معبوداً لهم .

---

= وفي ضوء هذه الدراسات الوافية أعاد فرينزر النظر في كتابه الأول عن التوتمية ، فأصلح ما كان فيه من خطأ ، وأكمل ما كان فيه من نقص ، ووسع نطاق بحثه حتى شملت معظم مظاهر الديانة التوتمية وما قام عليها من نظم اجتماعية ، وعن شرح هذه المظاهر والنظم وبيان أصولها ووظائفها والعلاقات التي تربطها ببعض وأخرج كتابه في هذا الوضع الكامل سنة ١٩١٠م في أربع مجلدات كبيرة تحت عنوان " التوتمية والإيجورجامية ( الإيجورجامية هي النظام الذي يحرم بمقتضاه على رجال العشيرة أن يتزوجوا من داخل عشيرتهم ) Totemism and Exogamy " . وبعد الآن هذا الكتاب أهم مرجع للباحثين في الديانة التوتمية وما تنطوي عليه من عقائد ويقوم عليها من نظم وأوضاع .

وجاءت من بعد هؤلاء جميعاً المدرسة الاجتماعية الفرنسية " L'Ecole Sociologique Française " فعينت بدراسة هذه الديانة عناية كبيرة ، وحللت عناصرها تحليلاً دقيقاً ، وكشفت عن كثير من حقائقها الهامة التي خفيت عن أنظار الباحثين من قبلها ، ووضحت العلاقة بينها وبين أصول الحضارات والنظم الإنسانية على العموم . ويرجع أكبر قسط من الفضل فيما وصلت إليه بحوث هذه المدرسة من شأنه رفيع في هذه الميادين إلى الدراسات التي قام بها رئيسها العلامة " دوركايم Durkeim " في كتابه الخالد عن " الأصول الأولى للنهضة الدينية بمثابة النظم التوتمية الأسترالية Les Formes Élémentaires de la Vie Religieuse. Le Système totémique en Australie " وقد ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب سنة ١٩١٢م ، ثم أعيد طبعه بعد وفاة مؤلفه سنة ١٩٢٥م في نحو ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير .

وعلى غرار دوركايم ألف كثير من أعضاء المدرسة الاجتماعية الفرنسية في الديانة التوتمية ونظمها وما يتصل بها كتباً قيمة . [على

عبدالواحد والي : الطوطمية ١٠٨-١١٣ ]

ج . الاعتقاد بوجود روابط دم وقرابة بين جميع أفراد الطوطم ، وهذا يفرض قيوداً صارمة على الزواج بين أفراد الطوطم الواحد الذين يحرم عليهم في الواقع مثل هذا الزواج ، كما أن كسل علاقة جنسية بين الذكور والإناث من أعضاء الجماعة الطوطمية تعتبر نوعاً من الزنا باخرام .

د . تحريم قتل الطوطم أو الاعتداء عليه بأى شكل من الأشكال ، وإلا أصاب العشيرة كلها - وليس الشخص الجاني وحده - الأذى والمرض والموت ، ولكن يحق لأفراد العشيرة أن يتناولوا لحم الطوطم في طعامهم في مناسبات شعائرية معينة بالذات لاكتساب الخصائص المستحبة التي يتميز بها الطوطم .

هـ . استحالة تغيير الشخص للطوطم الذي يتبعه نظراً لعلاقات الدم القوية بينه وبين طوطمه علاوة على العلاقة العشائرية .

و . العلاقة ليست قائمة بين فرد معين وحيوان معين بالذات (أسد معين أو تمساح معين مثلاً) ، وإنما بين العشيرة ككل وجميع أفراد فصيلة معينة بالذات من الحيوانات (جميع الأسود أو جميع التماسيح).

ز . وقوع التزامات معينة على جميع أفراد الطوطم الواحد بضرورة التماسك والتضامن حتى وإن لم يكن يعرف بعضهم بعضاً. فكل شخص ينتمي لطوطم الأسد مثلاً يعتبر أخاً لجميع الأشخاص الذين ينتمون لذلك الطوطم حتى وإن لم تكن بينهم علاقات قرابة فعلية ، كما أن هذه العضوية في الطوطم تنتقل معه من مكان لآخر بحيث تعرف القبائل المختلفة نسب أى شخص والقبيلة التي ينتمي إليها من مجرد معرفتها للطوطم الذي يتبعه .<sup>٧٦</sup>

وليس التوتّم إسمياً فحسب ، إنه رمز أيضاً ، وقد ذهب "جراي Grey" إلى أن كل أسرة استرالية كانت تأخذ حيواناً أو نباتاً كرمز أو إشارة لها. والأسرة هذه هي العشيرة بعينها . وذهب "Schoolcraft" إلى هذا أيضاً ، وهو يصف تواتم المنود في أمريكا الشمالية ، فقد رأى أن التوتّم عندهم رمز أو إشارة كتلك الرموز التي تتخذها الأمم المتحضرة الآن ، أو يشير إلى أصل الأسرة . ويرى هذا العالم أن التحليل اللغوي للكلمة يثبت هذا ، فكلمة "Totem" مأخوذة من "Dodaim" ، وهي تشير إلى القرية أو موطن الجماعة

<sup>76</sup> ( أحمد أبو زيد : فريزر : هامش صفحتي ١٢٣ - ١٢٤ )

الأسرية . ولما اتصل هنود أمريكا بالأوروبيين ، وارتبطوا بمعاهدات ، كانوا يلجأون إلى التوتم ، لكي يحموا به المعاهدات .

وكان التوتم يرسم وينقش على كل شيء : على الأسلحة ، وعلى جدران الأكواخ ، وعلى كل مألوفهم من متاع . وكانوا ينظمون شعورهم - قبل ذهابهم إلى القتال - على نسق التوتم ، وكانوا يحملونه معهم إلى القتال ، وكانوا يدافعون عنه أعظم دفاع .

ولما تقدمت القبائل قليلاً ، وسكنت البيوت نقشوه على الحوائط وعلى الخشب . وقد امتزج في ذلك الوقت بأشكال إنسانية ، وصُوِّرَ بصور مرتبة فيها بعض الزهارة . وفي بعض القبائل لم يكن ينقش إلا أمام بيوت الرؤساء والأغنياء . وقد حدث هذا في المجتمعات الأمريكية ، أما المجتمعات الاسترالية فلم تتقدم ولم يحدث فيها هذا الفن الذي اثبت عن الدين ، إلا بشكل ضئيل لا يذكر .

ولم يقف الأمر على رسم التوتم على الأشياء الخارجية ، بل رسموه على أجسامهم . إنه لم يعد رسوماً على الأمكنة والحوائط والقبور . إنما أصبح جزءاً منهم لا ينفصل عنهم ، فهوهم ، وهم هو .

نصل من هذا إلى أن أعضاء العشيرة كانوا يحاولون التشبه بالتوتم في مظهرهم الخارجي - من ناحية - وكثيراً ما كان يحدث في أعيادهم الدينية أن يعطوا لأنفسهم صورة ، أو أن يحملوا أعضاء من الحيوان أو النبات الذي يرمز إليه التوتم . فإذا كان التوتم عصفوراً ، وضعوا على رؤوسهم بعض الريش أو بعض أعضائه ، وإذا كان شجرة حملوا بعض أغصانها ، ومن ناحية أخرى حاولوا الاتصال به في طبيعته ، فطبعوا الرمز التوتمي على أعضاء أجسامهم الداخلية .

بل إن الأمر فاق كل هذا ، فلم يعد الرمز هو كل شيء في حياة العشيرة فحسب ، يرسم على الجمادات وعلى الأجسام الحية ، بل إنه أيضاً يرسم على الموتى . وبهذا دخل كعنصر أساسي في طقوس الموت ، فقبل أن توارى الجثة التراب ، يرسم الرمز التوتمي عليها أو يوضع معها .

لم يستخلص دوركائم من هذا أن التوتم ليس إسمًا ولا رمزاً فقط ، إنه عنصر أساسي في الطقوس والأعياد الدينية ، وله بجانب طابعه الاجتماعي "ميزة دينية" . إن الأشياء تنقسم - بالنسبة إليه - إلى مقدسة وغير مقدسة ، وهو - أي التوتم - مثال الأشياء المقدسة نفسها .<sup>77</sup>

<sup>77</sup> على سامي النشار : ١٠٣ - ١٠٥

## الرموز التوتمية

تكلم دوركايم عن ثلاثة أنواع من الرموز :

١. "الشورنجا Churinga" : تتكون من قطع من الخشب أو الحجر المصقول، وأشكالها مختلفة ، ولكنها في الغالب بيضاوية أو مستطيلة ، وكان لكل جماعة توتمية مجموعة من تلك القطع متفاوت أهمية ، وعلى كل قطعة منها كان يرسم توتم كل جماعة ، وكانت هناك بعض التواتم القليلة لاتحمل أى رسوم ظاهرة . وكانت الشورنجا تعتبر أقدس الأشياء ، ولم يكن يوجد شيء يتجاوزها في القداسة ، إنما كانت تشير إلى مقدس سواء استخدمت اسماً أو صفة ، ولقداستها المطلقة كان لايباح لغير أفراد القبيلة أن ينظروا إليها . كما أنه لم يكن ينطق باسمها إلا نادراً وبصوت خافت وخلال تلمات سحرية. وعلى العموم كانت الشورنجا تشير إلى كل الأعمال الطقسية. إنما عبادة الآمو، وقد أشارت كلمة "ilia churinga" إلى هذه العبادة . وفي إيجاز : الشورنجا هي كل شيء مقدس . ولم يكن يباح لغير المتطهرين الذين مارسوا الحياة الدينية كالنساء أو الشبان أن يلمسوا الشورنجا أو أن يروها ، وأحياناً كان يباح لهم أن يروها من بعيد ، ولكن لم يحدث هذا إلا في ظروف نادرة . وكان يعاقب بالموت النساء اللاتي ترى الشورنجا ، والرجال الذين أظهروا الشورنجا لأولئك النساء .
٢. " النورتونجا Nurtunga" : توجد لدى قبائل "أروننا Arunta" الشمالية ، ومايجاورها من عشائر ، وهي إما عصا واحدة ، وإما مجموعة من العصي ، تحاط عليها أعشاب نباتية ، ويوضع على الأعشاب صفائر من الشعر ، وريش الحيوان ، ولم تصنع النورتونجا في كل الحالات بهذه الصورة ، بل طراً عليها اختلافات وتكيفات حسبما تقتضيه الحالة الجزئية التي يكون فيها التوتم، فقد كان يوضع في أعلاها قطعة صغيرة منها ، وأحياناً كانت تأخذ شكل صليب ، أو شكل الحرف اللاتيني T .
٣. " الوانينجا Waninga" : توجد لدى قبائل "أروننا Arunta" الجنوبية وقبائل "أورابوننا Urabunta" ، وقبائل "لوريتيا Loritja" ، ولم تكن لها صورة واحدة أو صورة معينة . وإذا ما حاولنا أن نرجعها إلى عناصرها الأساسية ، لتكونت مما يأتي : عصا طويلة ، تحترقها عصا ، وعصاتان بشكل أفقي ، وتتصل هاتان العصاتان برأس العصا الأخرى بشعر إنساني .

وقد كانت النورتونجا والوانينجا موضع احترام ديني عميق ، وكان ينسب إليهما ما ينسب إلى الشورنجا من تقديس ، وكانا مركز الاحتفال الديني ، فيرقص أفراد العشيرة حولهما ، وتقام الطقوس . وإذا ما أرادوا إدخال شخص في الحياة الدينية للعشيرة ، يقام له احتفال خاص ، فيؤتى بالنورتونجا أو بالوانينجا ، ويخاطبونه بألفاظ دينية على ما قدمه من خيرات لا تحصى للشبان ، ثم ينتهي الأمر بتقبيل المرید لها ، وبهذه القبلة يصبح واحداً من العالم المقدس . وقد لعبت النورتونجا دوراً هاماً في الأساطير . وكان الشبان إذا خرجوا للصيد أو القتال ثبتوا العصا - النورتونجا - في الأرض ، واستمدوا منها التأيد ، فقد كانت تمنحهم كل شيء .

أما السبب الذي جعل تلك الرموز مقدسة ، فهو أنها تشير إلى التوتم ، والتوتم رمز لا يمكن أن يعترض عليه . ويلاحظ أن الشورنجا والنورتونجا والوانينجا مقدسة لأنها تحمل الرمز المقدس ، وهذا الرمز هو الذي يعطى القداسة لأي شيء يرسم عليه . وكان الرمز يرسم أحياناً على أحجار ، كما كان يرسم على الأرض . وكان يرسم بشكل خاص ، وبسائل مقدس هو الدم ، وإذا مارسه ، جلس أفراد العشيرة أمامه في حالة تعبد شديدة .<sup>٧٨</sup>

فالتوتم هو الشارة أو العلامة التي تميز بها العشيرة عن غيرها ، وهو الذي يفصلها عن غيرها من العشائر فالتوتم هو رمز للإله وللجماعة . ومن هنا يستنتج دور كايم نتيجة قاطعة أداه إليها مذهبه الاجتماعي ، وهي أن الله والجماعة ليست إلا شيئاً واحداً ؛ فإنه العشيرة أو الإله التوتم لا يمكن أن يكون سوى العشيرة نفسها ، غير أنه يصور في أفكار أو تخيلات عن أنواع محسوسة من النبات أو الحيوانات التي تستخدم كتوتم . فالجماعة إذن أو العشيرة لم تعبد إلهاً ، إنما عبدت نفسها . وأول ديانة في الوجود هي عبادة المجتمع نفسه ، والدين ليس على الإطلاق فكرة خارجية أو حقيقة علوية ، إنما انبثق من قلب الجماعة وصدر عنها . **ولكن كيف حدث هذا ، وكيف تم في مبدأ الإنسانية وطفولتها ، ثم سارت عليه**

### الإسانية بعد ذلك في مدارجها المختلفة ؟

يجيب دور كايم عن هذا بأن الجماعة وحدها هي التي تستطيع أن توظف في الفكر الإنسان الإحساس بالإلهي - بما لها من تأثير بالغ على الأفراد - وإذا تعنا في أثرها على أفراد الجماعة ، لرأيناها شبيهاً إلى حد كبير بتأثير الله على المؤمنين به ، إنما تأمر وتنهى ، وتطلب من الأفراد الطاعة العمياء ، وقد رأينا في مناسبات

<sup>78</sup> المصدر السابق ٢١١-٢١٣ .

عدة ، كيف تسيطر الجماعة على الأفراد ، وكذلك الله . والله أولاً وبالذات موجود ، يتصوره الإنسان في صور مختلفة ، على أنه قوة عليا أسمى منه كثيراً ، ويوقن أنه متصل بها ويتعلق وجوده بوجودها ، وسواء عبد الإنسان على الإطلاق قوة مدركة محسوسة كزيوس أو يهوه أو قوى مجردة ، فإنه يشعر في أعماقه أنه إنما يفعل مايفعله ، ويقوم بما يقوم به ، لأن مبدأ إلهياً يدفعه ويسيطر عليه . كذلك الجماعة إنما تفرس فينا الإحساس بارتباطنا الدائم بها ، وتعلقنا تعلقاً لا انفصام له بوجدتها ، ومن المؤكد أن ثمت اختلافاً كبيراً بين طبيعة الجماعة وطبيعة الأفراد . وقد تبين للعقل الجمعي بوضوح هذا التباين وهذا الاختلاف الشديد ، فكان على العقل الجمعي إذن أن يلجأ إلى وسائل خاصة به ، لكي يؤثر فينا أثره ، وأن يجمعنا في وحدته . إنه يأمر وينهى ويحدد ، إنه يأمر بتضحيات قد تصل أحياناً إلى التضحيات بالحياة ، إنه يتطلب الفناء المطلق في حياته الجمعية . وبدون هذا لا تكون الحياة الاجتماعية ممكنة .

## التوتمية أقدم الديانات

ذهب دوركايم إلى أن جميع العقائد التي عرضها في توضيحه لفكرة التوتمية هي عقائد دينية . إنما تتضمن تقسيم الأشياء إلى مقدس وغير مقدس . . . ويرى أنها أقدم الأديان على الإطلاق ، إنما متصلة أوثق اتصال بالتكوين الاجتماعي للعشائر ، أى بالتكوين الاجتماعي الذي تكون العشائر أساسه . ونحن لا يمكننا أن نحدد فحسب بأن التوتم لايقوم بعمله ولايصح إلا في العشيرة ، إن دوركايم يذهب إلى أن العشيرة - في أبسط صورها - وهى الصورة الاسترالية ، لايمكن أن توجد بدون التوتم . إن أفراد العشيرة لايجتمعون ولايتصلون ولايكونون عشيرة على أساس المعاشرة أو السكنى أو الدم ، ذلك لأنهم ليسوا بالضرورة يعيشون في مكان واحد أو من عصب واحد ، إنما قد يكونون متفرقين في نطاق القبيلة ، فوحدتهم إنما تأتي لاشتراكهم في اسم أو رمز ، أو بما لهم من نفس العلاقات بمجموعة معينة من الأشياء ، أو بمعنى أدق من أنهم يزاولون عبادة توتمية واحدة . فالتوتمية والعشيرة يمتزجان امتزاجاً تاماً ، ولا توجد واحدة بدون الأخرى . ومن المعلوم أن التكوين الاجتماعي على أساس العشيرة هو أبسط نظام اجتماعي ، ولم يكتشف نظام آخر أقدم منه إلى الآن . وعلى هذا فالتوتمية التي تتصل بهذا النظام أوثق اتصال هي أقدم دين من الأديان . لم يوافق جماعة من العلماء على هذا الرأي ، وحاول كل منهم أن يبين تشعب التوتمية عن دين من الأديان الأخرى ، وانقسموا في ذلك إلى قسمين :

**القسم الأول :** وعلى رأسه "تيلور ، و ويلكن Tylor & wilken" ، يرى أن التوثمية صورة جزئية من عبادة الأسلاف . أما كيف تشعبت هذه الصورة الجزئية عن الصورة العامة للدين ؟ يجب تيلور بأن فكرة تناسخ الأرواح كانت المعبر الذى انتقل عليه الدين من فكرة عبادة الأسلاف إلى التوثمية . كان الناس يعتقدون في مبدأ الإنسانية أن نفوس الموتى لاتستمر طليقة غير متجسدة أو متحيزة في جسم إنسانى ، إنما تعود من جديد لتقمص جسماً حياً . ومن ناحية ثانية - إذا كانت سيكلوجية الأجناس البدائية لاتضع أى تميز محدد بين الإنسانية والنفوس الحيوانية - فإنه لم يستعص عليها أن تقبل تقمص النفس الإنسانية وتناسخها في جسد حيوان من الحيوانات ، وقد أورد تيلور في كتابه " Civilisation primitive " عدداً من الحالات التى تثبت هذه الفكرة . تقمصت النفس الإنسانية الحيوان ، فانتقلت القداسة الدينية التى كان يسوحى بها السلف إلى الحيوان أو النبات وامتزجت به ، ومن ثم أصبح الحيوان شيئاً مقدساً ، وصار موضوع عبادة ، أى أصبح توثماً .

وقد قدم " ويلكن " حالات كثيرة توصل إليها - خلال أبحاثه في أرخبيل الملايو - تثبت أن العقائد التوثمية نشأت على هذه الصورة ؛ ففي جاوة وسومطرة قدست التماسيح ، واعتبرها البدائيون حماة لهم ، ولذلك حرم قتلها وقدمت إليها القرابين . أما سبب هذه العبادة فهو أن الأسلاف قد تقمصت فيها . ويعتبر ملايو الفلبين التمساح جدهم الأكبر ، وكذلك قبائل " البانتو Les Bantous " في أواسط إفريقيا ، وفي ماليزيا كثيراً ما يعلن الأفراد الموهوبون الكبار في القبائل بأنهم سيتقمصون في حيوان أو نبات معين . وحينئذ يصبح هذا الحيوان أو هذا النبات شيئاً مقدساً لجميع أفراد الأسرة .

**القسم الثانى من العلماء :** يتزعمه " جفونز Jevons " وملخص رأيه : أدهشت الطبيعة الإنسان الأول وأخافته بما فيه من تقلبات وعدم انتظام في كثير من الأحيان ، فلكى يتقى غضبها وانتقامها ، رأى أن يحالفها أو أن يحالف بعضها ، وبهذا يضمن معاونتها . وليست هناك في مجرى التاريخ علاقة وارتباط أقوى من القرابة ؛ فأعضاء العشيرة الواحدة إنما يتعاونون لأنهم أقرباء أو لأنهم يعتبرون بعضهم بعضاً سواء ، وهكذا فعل البدائيون مع القوى الطبيعية . ولما كانت الذات أو الشخصية المفردة غير معروفة في ذلك الوقت ، فقد تعاقدت العشيرة نفسها على هذه القرابة ، ولم تتعاقد مع فرد من أفراد النوع ، وإنما مع النوع الطبيعى كله ؛ ذلك أن الإنسان يفكر في العالم كما يفكر في نفسه ، فإذا كان لا يدرك نفسه أو ذاته مستقلة عن عشيرته ،

فإنه لا يستطيع أن يدرك شيئاً من الأشياء منفصلاً عن نوعه ، وإذن فإن نوع الأشياء الذى ترتبط به عشيرة من العشائر برباط القرابة إنما هو توهم .

## نقد النظرية

أورد الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه : " الدين " نقد العلماء الغربيين أنفسهم لهذه النظرية ، فقال :

يقول صاحب النظرية : إنه ينبغي أن تدرس الظاهرة الدينية في أقدم عصورها ، وأقربها إلى عهد نشأتها ؛ ويقرر أن نظام القبائل والعشائر أقدم وجوداً من نظام الأسر ، وأن قبائل استراليا الوسطى تمثل أقدم الأطوار المعروفة للقبائل ، فهي أحق بأن يقع عليها الاختيار للبحث والدرس .

**أما المقدمة الأولى :** فإنها وإن كانت مبدأ سليماً في الجملة ، لمن يعنيه تكملة بحث المسألة من وجهتها التاريخية البحتة ، إلا أن اتخاذ البحث قاعدة عامة تعرف منها حقيقة الدين من حيث هو ، يعد عملاً مجافياً لقانون المنطق السليم . أفيحق لنا أن نحدد حقيقة الإنسانية من النظر في أطوار الجنين ، أم وهو بعد في الأدوار التى تمر بها سائر الكائنات الحية ، قبل أن تتميز أجهزته الخاصة ، وتتعين وظائف أعضائه ، وقبل أن يجيا حياة مستقلة ، وقبل أن تستيقظ فيه ملكات الفهم والبيان وغيرهما ؟ إن تحديد الدين بذلك المعنى الغامض الذى يتلجج في صدر الإنسان في طور طفولته ، وهو بعد لا يستطيع حقيقة شعوره ، ولأهداف أعماله ، فساد في المنهج لا يقل عن تعريف الإنسان بالجنين . ولقد أصاب هوفدنج إذ يقول : " إنه ليس من المستطاع دائماً أن نستقى معلومات كافية من الطبيعة الحقيقية لكائن ما ، من مجرد النظر في أصل تكوينه ؛ فإن التغيرات والنظم التى تحدث له في أثناء نموه ، قد تبرز فيه صفات وخصائص ما كنا نرى منها أدنى أثر في بدايته . إن الطبيعة الحقيقية لكائن ما ، إنما تتكون من قانون تطوره منذ نشأته الأولى إلى صورته النهائية " .<sup>79</sup>

**وأما المقدمة الثانية :** وهى أن نظام القبيلة يمثل طوراً تاريخياً أقدم من نظام الأسرة ، فهى دعوى لاتزال يعوزها الدليل ، بل تقوم بعض الأدلة الأثرية والتاريخية على عكسها ؛ فالآثار الباقية من عهد القبائل الآرية والسامية يتبين منها أنها كانت قائمة على النظام الأسرى ، الذى تتضمن فيه أفراد الأسرة في الحقوق والواجبات ، والذى يتمتع فيه الأب بأوسع السلطات على أعضاء أسرته . وإذا قرأنا الأوصاف التى ذكرها " أرسطو Aristotle " و " هوميروس Homère " للشعوب المعاصرة ليونان ، والتى كانت أقرب منهم

<sup>79</sup> Hoffding. Ouv. Eité, p. 126.

إلى الفطرة والسذاجة ، نرى أن المعيار الذى كانوا يميزون به هذه الشعوب عن الشعوب المتحضرة هو أنهم ليس لهم مجالس شورى ، وأن كل واحد منهم يتولى الحكم على زوجه وأولاده...<sup>80</sup>

وكذلك نقول فى المقدمة الثالثة ، وهى أن قبائل أستراليا الوسطى تمثل أقدم نظام معروف للقبائل ؛ فهى أيضا مسألة فيها نظر . وهذا "روبير شيمت" من كبار الباحثين ، الذين قاموا بدراسات شخصية دقيقة فى أستراليا ، يقرر أن القبائل المذكورة هى أحدث القبائل الأسترالية وأكثرها تقدماً ، وأن أقدم قبائل أستراليا هم سكان جنوبها الشرقى . وهؤلاء لا يعرفون نظام الألقاب الحيوانية السالفة الذكر ، وفى الوقت نفسه توجد عندهم عقيدة " الإله الأعلى" بصفة واضحة . على أن اللوحة التى رسمها "دور كايم" نفسه حياة قبائل الوسط تكفى وحدها للدلالة على أننا أمام أمة قد بعدت عن سذاجة الفطرة ، وقطعت أشواطاً واسعة فى نظامها المدنى والاقتصادى . يبدو ذلك جلياً فيما عندها من قواعد الزواج ، والنسب ، والملكية ، وتنظيم مواسم الصيد وغيرها . بل إن نظام التسمية وحده كان يحتاج فى إنشائه وتثبيته إلى عصور متطاولة للتواضع عليه بين الأمة جيلاً فجيلاً ، حتى وصل إلى الوضع الهندسى الدقيق ، الذى يلاحظ فيه دائماً أن تقسم القبيلة إلى فصيلتين اثنتين ، لازائد عليهما وأن يكون لقب القبيلة مشتقاً من جنس عام ، وألقاب الفصيلتين من نوعين متقابلين تقابل التضاد تحت هذا الجنس ، ثم تتفرع من كل فصيلة عشائرها المتعددة بألقابها المختلفة كأشواك الشجرة ؛ بحيث لا تشترك عشيران قط فى لقب واحد . ولذلك عد علماء هذا الفن نظام الـ "totem" نظاماً مدنياً قضائياً ، اقتصادياً ، أكثر منه نظاماً دينياً<sup>81</sup> ؛ بل إن الباحثين "لانج و فريزر Lang and Frazer" لم يريا فيه عنصراً دينياً ألبتة ، وقرروا أن فكرة الدين والألوهية تكونت فى هذه القبائل بعيداً عن نظام اللقب الأسرى المعروف.<sup>82</sup>

ونحن نذهب إلى هذا المذهب الأخير ، ولا نرى فى هذه الألقاب والرموز عندهم إلا شعاراً قومياً يعرفهم بأنسابهم ، وينمى فيهم شعور الوطنية ، وباعثة التعاون ، واحترام قانون توزيع الملكية وسائر قوانين الجماعة . فهم لا يعبدون تلك الرسوم ولا منولولاقها ، بل لهم معبود روحى يعتمدون عليه فى جلائل أعمالهم ودقائقها ، حتى إنهم ليستلهمونه أو يستخبرونه أو يدعونه ليرشدتهم إلى انتقاء أمثل الأسماء لأبنائهم ؛ كما أنهم فى تحريمهم لبعض المحرمات إنما يستندون إلى روايات دينية متوارثة عن أسلافهم ، ينسبونها إلى أمر الله .

<sup>80</sup> تاريخ القانون لعلى بدوى : ١٥ .

<sup>81</sup> ) Von H. Hubert. Introduction à la traduction de Chantepie de la Sussake. Manuel d' Histoire des religions. P. XXXIX

<sup>82</sup> ) Durkheim, ouv. Eitè, p. 294.

والعجب أن رئيس المدرسة الاجتماعية الفرنسية يعترف بأن عدداً من قبائل أستراليا قد وصلوا إلى فكرة "الإله الأعلى" أو "الإله الأحد" ، وأنه كائن أزلي أبدي تسير الشمس والقمر بأمره ، وأنه هو الذى يثير البرق ، ويرسل الصواعق ، وإليه يتوجه فى الاستسقاء وفى طلب الصحو ، وهو الذى خلق الحيوان والنبات ، وصنع الإنسان من الطين ونفخ فيه الروح ، وهو الذى علم الإنسان البيان ، وأهمه الصناعات ، وشرع له العبادات ، وهو الذى يقضى فى الناس بعد الموت ، فيميز بين الحسن والمسيء....<sup>83</sup> ثم يقرر أيضاً أن هذه العقائد كلها ليست مقتبسة من أوروبا كما ظن تيلور ، بل إنها قديمة فى هذه القبائل قبل أن يصل إليها المبشرون الأوروبيون ، وأنهم يعبرون عن هذه العقائد بعبادات حقيقية ، ترفع فيها الأيدي إلى السماء بالدعاء .

### تحريف لا تطوير

يرى الباحثون فى الأديان أن هناك ثلاثة أطوار مرت بها الأمم البدائية فى اعتقادها بالآلهة والأرباب :

وهى دور التعدد Polytheism

ودور التمييز والترجيح Henotheism

ودور الوجدانية Monotheism

ففى دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أرباباً تعد بالعشرات، وقد تتجاوز العشرات إلى المئات، ويوشك فى هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة ربّ تعبد ، أو تعويذة تنوب عن الرب فى الحضور، وتقبل الصلوات والقرابين .

وفى الدور الثانى ، وهو دور التمييز والترجيح تبقى الأرباب على كثرتها ، ويأخذ رب منها فى البروز والرجحان على سائرهما . إما لأنه رب القبيلة الكبرى التى تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة ، وتعتمد عليها فى شئون الدفاع والمعاش ، وإما لأنه يحقق لعباده جميعاً مطلباً أعظم وألزم من سائر المطالب التى تحققها الأرباب المختلفة ، كأن يكون رب المطر والإقليم فى حاجة إليه ، أو رب الزواجر والرياح ، وهى موضع رجاء أو خشية ، يعلو على موضع الرجاء والخشية عند الأرباب القائمة على تسيير غيرها من العناصر الطبيعية .

<sup>83</sup> ) Durkheim, citè, p.412.

وفي الدور الثالث تتوحد الأمة فتجتمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب في كل إقليم من الأقاليم المتفرقة . ويحدث في هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها ، كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها ، ويحدث أيضاً أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها ، مع بقاءه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمتبع ، والحاشية للملك المطاع .

ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدانية الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة، ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التي كانت سائغة في عقول الهمج وقبائل الجاهلية . فتصف الله بما هو أقرب إلى صفات الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة في أطوارها السابقة ، وتقترب العباداة بالتفكير في أسرار الكون وعلاقتها بإرادة الله وحكمته العالية ، وكثيراً ما يتفرد الإله الأكبر في هذه الأمم بالربوبية الحقة ، وتزل الأرباب الأخرى إلى مرتبة الملائكة ، أو الأرباب المطرودين من الحضرة السماوية .....

ومن العسير جداً أن نبنى من هذه الأطوار جميعاً سلماً متعاقب الدرجات ، لا نتقدم فيه درجة على درجة ، ولا يتلاقى فيه نوعان أو أكثر من نوعين من المعبودات ؛ فقبائل الهوتو الإفريقية التي لم تفارق مرتبة الهمجية حتى اليوم - ولا يزال أناس منها يأكلون لحوم البشر!!- تعرف إلهاً واحداً فوق جميع الآلهة يسمى أبا الآباء .

إن نظريات علماء الأديان في أصل الدين وتطوره ينقضها ماتوصل إليه الباحثون من أن الإله الأعلى كان معروفاً منذ القدم لدى القبائل البدائية . والدليل على ذلك مارواه الرحالة عن القبائل الإفريقية من اعتقادهم في قوة عليا هي التي خلقت هذا الكون، وإيمانهم بأن الروح لا تموت ؛ "إذ فكرة الإله الأعلى تكاد أن تكون موجودة لدى جميع القبائل"<sup>84</sup> ، بل إن مفهوم الذات الإلهية الكلية : الحضور ، والذاتية: الاكتفاء ، والشاملة : القدرة ، نجده بين كثير من القبائل الزولو بجنوب إفريقيا ، والبايراواندا ، والأشاتي بساحل العاج ، والآكان بغانا ، واليروبا بنيجيريا ، والبركونجو بأنجولا ، والنجومية بجمهورية الكونغو..... على أننا يجب ألا يفوتنا هنا أن نذكر أن لدى الأقزام ، وهم - كما يقولون - أقدم سلالات إفريقيا ، كانوا أعلى يطلقون عليه اسم مونجو . وهم يلتمسون منه الفوز بالصيد . كما لا يأكلون بكر الثمار قبل أن تُطرح في الغابة باسم مونجو ، ويقول القزم حين يطرحه : "مونجو هذا لك" . ويخصص بكر المحصول له ، لأنه خلق أشجار الفاكهة ، وساعد على نضج ثمرها . وإلى هذا الكائن يعزو الأقزام أيضاً خلق جميع الأشياء ، وأنها ترجع إليه .

<sup>84</sup> (راجع مندلسون ص ٨

وفي قبائل يوروبا في غرب نيجيريا يطلق على الإله الخالق : الأب ، والسيد ، والعظيم ، مالك النفس، أو الروح ، وأصل العظمة ، ويعتقدون أنه خالق كل شيء ، والقاضي على الناس ، الآن وبعد الموت، المحافظ على القوانين الأخلاقية . ويعتقد اليوروبي أن روحه يجب أن تقدم حساباً للإله عن أعمالها الدنيوية ، وأن المحسن يذهب إلى جنة الخلد ، والمسيء يذهب إلى أكمة القاذورات .

ويرى بعض الجالا بالحبشة أن الله أتى ذات مرة من السماء ، وأنه تخاطب مع الجنس البشري ، في حين يعتقد الجيكويو من كينيا أن الله حينما يأتي من السماء يستقر على جبل كينيا وأربعة جبال أخريات . وإذا ذكرنا تقديم الأقرام لبكر المحصولات والصيد وغيرها إلى إلههم مونجو ، فلا بد أن هذا يذكرنا بدوره بالممارسة نفسها في ديانة "بعل" ، بل لعله يذكرنا أيضاً بما أمر الله به سيدنا إبراهيم بأن يقدم له ابنه البكر قرباناً. وواضح مدى تشابه الأساطير مع ماورد في العهد القديم عن سيدنا موسى ومخاطبته الله في سيناء . كما أن هناك رواية من قبائل تشاجا بتانزانيا تحكى أن الله قد غضب من أعمال البشر فأهلكهم فيما عدا قلة، وجلى مدى التشابه بين هذه الرواية ، وقصة سيدنا نوح . ويروي البامبوتى والتشاجا والميرو كيف أن الرب حرّم أكل ثمار شجرة معينة على الإنسان ، وكيف أنه حينما عصى الإنسان الأمر وأكل منها جاء الموت إلى الأرض وعزل الرب نفسه عن الإنسان . ولا يحتاج هنا إلى التذكير بقصة سيدنا آدم عليه السلام .

وجميع الأديان الإفريقية التقليدية تعتقد فيما وراء الموت بشكل أم بآخر ، كما تعتقد أن المتوفى تستمر حياته في عالم الأرواح ، واتصاله بأقاربه الأحياء ، بل استمرار رعايته لهم كما كان حال حياته . ومن هنا جاءت الفكرة الشائعة الخاطئة عن عبادة الأسلاف - التي رأى فيها بعض العلماء خطأً أنها صورة من صور الأديان البدائية ، ففهموا أنها أصل الدين قبل التطوير - ، وهي في الواقع ليست أى نوع من العبادة في جوهرها ، ولكنها ، كما كانت عند قدماء المصريين ، فكرة استمرار حياة الأرواح بعد الوفاة في عالم الأرواح ، أو هي بمعنى آخر امتداد زمنى للحياة الأرضية بجميع مظاهرها ، مما أدى إلى تقديم طعام وشراب للروح ، وأدى هذا بدوره إلى الاعتقاد الخاطئ بأن الديانات الإفريقية نوع من عبادة الأسلاف .

على أن الديانات التقليدية من ناحية أخرى ترى أن الله أسمى من أن يتصل به بشر رأساً ، وإنما يكون اتصالهم به عن طريق أرباب أدنى منزلة وكلّهم الله بثنون الحياة المختلفة. فالله ، من وجهة النظر الغالبة في هذه الديانات ، خلق الكون بأكمله ووجه الحياة ، ووضع نواميس الطبيعة ، ولكنه لا يمكن الاتصال به ، في الطلبات اليومية للبشر ، إلا عن طريق أرباب أو أرواح ، وقد تكون بعضها من أرواح الأسلاف . وكل

رب أو روح ، يختص بعمل معين على الأرض ، فهناك مثلاً روح النهر ، أو رب الغابة ، والمطر ، والصيد ، والزرع وما شابه . وإلى هذه الأرباب أو الأرواح يكون الاتجاه أولاً .

كثير من الإفريقيين لا ينسون اسم إلههم الأعلى - مقدماً على توسلهم للأرباب الأخرى في مسائل حياتهم اليومية - ، فهم يذكرون اسمه حينما يستعدون للنوم ، فيقولون : " نرجو الله أن يوقظنا في صحة ، وحينما يستيقظون ، يقولون : " نرجو الله أن يرزقنا غذاءنا " . إنهم يعتقدون فيه وفي أن وجوده وحضوره حقيقى وعظيم . لماذا إذاً لا يعبد الإفريقيون وحده ؟ إن الإجابة الصحيحة عن هذا تلوح من وجهة نظر الإفريقيين أنه من الغباء إهمال القوى الأقل شأنًا ، لأنها أكثر قرباً ، وأكثر ملاحظة ، وبالتالي يمكنها أن تسبب متاعب أكثر من الله العظيم ، كما يمكنها أن تكون أكثر خدمة في حالة الأزمات .<sup>85</sup>

وعلى هذا فإن الديانات الإفريقية التقليدية كلها تجمع على وجود إله واحد... وأن هذا الإله هو إله سامٍ ومتفرد بصفة الخلق ، وذلك هو ماجاءت به الأديان السماوية . أما اعتقاد البدائيين في أرباب أخرى تلجى حاجتهم اليومية فهو تحريف دخل على العقيدة أثناء الفترات بين الرسل ، ونرى شبيهاً بذلك - في الممارسات وليس في الاعتقاد - في المجتمعات المعاصرة التي تؤمن برسالات سماوية ، حيث يتوسل كثير من المؤمنين بأفراد من البشر أضفوا عليهم أوصافاً عدة ، وصلت في بعض الحالات إلى ما يقارب أوصاف الأرباب عند البدائيين .

\* \* \*

<sup>85</sup> جاك مندلسون ٨ وما بعدها .